فكاهات

حسنات الحب

بقلم حضرة الكاتبة السيدة لبيبة هاشم

يأذن لي القارئ الكريم ان اقصّ على مسامعهِ حادثةً جرت حقيقةً وهي مع ما فيها من غرابة الواقعة وفكاهة الحديث لا تخلو من فائدة للمطالع اذ تنبههُ الى التحذر من مثلها مما يمكن حدوثهُ في كل زمانٍ ومكان

رُوي ان في مدينة القسطنطينية قصراً شاهق البنيان متسع الاركان تقطنهُ أُسرةٌ شريفة مؤلفة من ارملة طاعنة في السن وخمسة بنين متزوجين ولهم اولاد بحيث كان عدد اعضاء تلك الاسرة ما يزيد عن العشرين وكان القصر مفروشاً باحسن الرياش ومزداناً بأثمن التحف

ففي مساء ١٥ يونيو من سنة ١٨٨٩ قُرع الباب قرعاً خفيفاً فأطلّ الحاجب من كوّةٍ صغيرة فرأى فتاةً ذات جمال باهر يدهش الابصار وعينين سوداوين ترميان الفؤاد بنبال ويتبين من هيئتها انها في الرابعة والعشرين من العمر متدثرة برداءٍ اسود بسيط الهيئة واسع الاكمام وعلى رأسها قبعةٌ بيضاء مغضّنة (مكشكشة) الاطراف مما يدل على انها راهبة من خدمة الدين . فبُهت الرجل لذاك الجمال وجعل لا يرفع طرفهُ من النظر اليها وقد شعر في فؤادهِ بخفقانٍ شديد وكأن لسان حالهِ ينشد قول الشاعر المصري

ارى لوعةً بين الجوانح لا تهدا اهذا الذي سماهُ اهل الهوى وجدا

ثم فتح لها الباب فدخلت ونظرت اليهِ بلطفٍ واحتشام وقالت بصوتٍ يأخذ بمجامع الفؤاد رقةً وحلاوةً اليس هذا منزل يعقوب بك . فقال بلى يا سيدتي . قالت وهل السيدة صاحبة القصر هنا . قال نعم . فتناولت بطاقة زيارة قد كُتِب عليها باللغة الفرنسوية « الاخت اوغستين ماريا » واعطتهُ اياها قائلةً تكرم بتسليم هذه الى حضرة السيدة واخبرها اني بحاجةٍ الى مقابلتها . فأخذ بطاقتها وانطلق بها ثم عاد بما أمكنهُ من السرعة قائلاً بتأدب لتتفضل السيدة بالدخول فان مولاتي بانتظارها . قال ذلك وسار امامها حتى اوصلها الى ردهة الاستقبال ثم انحنى امامها باحترام وانصرف

فلبثت واقفة هنيهةً تتفرس في عظمة القصر وزخرفهِ وتنعم النظر في مداخلهِ ومخارجهِ ثم دخلت الردهة وجلست في احدى جوانبها وكانت تبدو على محياها الصبيح مظاهر القلق والارتباك فأخذت تتلاهى بالنظر الى موجودات الردهة وزينتها معجبةً بما فيها من جمال الرياش وحسن الترتيب وكمال الذوق . ولم يكن الاّ القليل حتى اقبلت ربة المنزل وكانت سيدةً جليلة المنظر عظيمة الشأن يكللها المشيب ويزينها الوقار فنهضت الراهبة وحيتها باحترام فأجابت السيدة تحيتها بابتسام ثم جلست بازائها

فابتدرت الراهبة مضيفتها بحديثٍ اوضحت لها فيهِ اسباب زيارتها قالت اني راهبة من اخوات المحبة في بلاد مصر ارسلتني رئيسة الدير الى هذه الديار في بعض المهام فاتفق وصولي مساءً بحيث تعذر عليَّ استئناف المسير وحدي لبلوغ الدير الذي اقصدهُ . وانا كما ترينني فتاةٌ غريبة اجهل الطريق المؤدي اليهِ واخشى خطر الالتجاء الى مكانٍ لا اعرف صفات اهلهِ فحرت في امري

واخيراً نصح لي بعض المارّة ممن سألتهم بأن اقصد هذا المنزل لما امتاز بهِ اهلهُ من طيب العنصر ومكارم الاخلاق وحسن السمعة وعليهِ تجرأت على طرق منزلكِ آملةً ان اجد فيهِ من كرم الضيافة ما يجعلني ابيت هذه الليلة قريرة العين آمنةً من كل خطر . فان شئتِ تحقيق آمالي وتكرمتِ بقبولي في منزلكِ اوليتني نعمةً وطوقتِ جيدي بفضلكِ والاّ فارجوان تأمري احد خدمكِ بمرافقتي ليرشدني الى الدير ولكِ مني الشكر الجزيل في كل حال

فقالت ربة المنزل بل مرحباً بكِ واهلاً بمقدمكِ ايتها الاخت المباركة ومهما طال زمن اقامتكِ عندنا فانكِ مقبولة على الرحب والسعة

فاشرق وجه الفتاة فرحاً واستبشاراً وشكرتها بأعذب الالفاظ . وبعد ذلك انتقلتا في الحديث الى امور شتى كانت تُظهر ما للراهبة من طول الباع في حسن المعاشرة ولطف المحاضرة فوق ما وهبها الله من الجمال النادر واللطف الساحر بحيث اخذت بمجامع قلب المضيفة التي جعلت تمجد الخالق العظيم . ثم سارت بها بعد ذلك الى احسن غرفةٍ من القصر فأنزلتها بها بعد ان عرّفتها بسائر اعضاء أُسرتها فلم يكن اعجابهم ببديع طلعتها اعظم منهُ بباهر آدابها

اما البوّاب فلبث مدةً طويلة فلق البال مشتت الافكار وهو ينتظر خروج الراهبة بقلبٍ قد فارقهُ الصبر ليتمتع بنظرةٍ اخرى من محياها الفتان ولما طال انتظارهُ وهو يحسب الدقائق اياماً طوالاً ذهب فاستخبر عنها بعض الخدم فعلم انها ستقيم تلك الليلة في القصر وقد انزلتها ربة المنزل بالغرفة الشمالية من الطبقة العلوية . فعاد أدراجهُ معللاً النفس بمشاهدتها عند انتهاء

مدة الضيافة

وقضى اهل المنزل تلك الليلة مع الراهبة وهم في اتمّ السرور والاعجاب بمحاسنها ولطف حديثها وقد اجتمعوا حولها وجلسوا يؤانسونها ويحادثونها وهم يرون من كمال آدابها ورقة اخلاقها ما سحرهم جملةً . وما زالوا على ذلك الى ان انتصف الليل اوكاد فنهض كلٌّ منهم الى مضجعهِ ودخلت الراهبة غرفتها وساد السكوت في المنزل فلم تُسمع رنة الساعة الاولى بعد نصف الليل حتى كان السكون مخيماً حول القصر لا يُسمع هناك سوى حفيف الاشجار التي تكتنفهُ من كل جهاتهِ والرياح تهب متخالةً اغصانها فتحدث في المكان رهبةً يزيدها ظلام الليل استيحاشاً

وكان يحيط بالقصر حديقةٌ غنآء واسعة الارجآء ممتدة الاطراف قد كسيت ارضها بالنباتات والازهار وخيمت فوقها الاشجار وامتدّ حولها سورٌ مرتفع ينتهي طرفاهُ بباب كبير مصفح بالحديد وعلى مقربةٍ منهُ غرفةٌ صغيرة فيها من الاثاث كرسيّان ومائدة وفي احدى زواياها سريرٌ ملقى عليهِ رجلٌ هو الحاجب بعينهِ الذي هام بجمال زائرة القصر وكان حتى تلك الساعة يتململ على سريرهِ وقد هجرهُ الرقاد وناب مكانهُ خيال الراهبة فلم يبرح من امام ذهنهِ منذ وقع نظرهُ عليها

واخيراً نهض متثاقلاً وخرج يتنقل في الحديقة ونظرهُ متجهٌ دائماً نحو مخدع فاتنتهِ التي سلبت لبهُ واسهرت جفنيهِ . وانهُ لكذلك اذ لمح من نافذتها نوراً يظهر تارةً ويحتجب اخرى كما لوكان شخصٌ يمشي بازآئهِ ذهاباً واياباً فخفق فؤادهُ لتحققهِ انها لا تزال مستيقظة واخذت عواطفهُ تجذبهُ

لصعود السلم واستراق النظر اليها من خرق الباب ولكن آدابهُ كانت تحول دون اتمام قصدهِ ولا سيما وانهُ قد ربي في ذلك المنزل منذ حداثتهِ فشب على الامانة وحسن الخدمة بحيث كانوا يأتمنونهُ على اموالهم وخزائنهم وكل ما في منزلهم . ولكن الحب ابو العجائب يلعب بالافكار وليس من قضائهِ فرار فصمم على اتباع هواهُ ولو كان في ذلك تلفهُ فاجتاز السلم ثم عطف في رواقٍ طويل انتهى بهِ الى باب غرفتها وكان في اثناء ذلك يتصور مقدار جمال فاتنتهِ وهي بلباس النوم بدلاً من ذلك الثوب القاتم الذي كان يحجب غصن قوامها عن النظر . فيتجلى لهُ منظرها بما يفضح قدّ البان ويزري بجمال القمر . ثم اقترب من الباب بقلب خافق ولكنهُ توقف لحظةً يمسح العرق البارد المتحلب من جبينهِ وعاد فاستجمع ما بقي لديهِ من القوة وانحنى بكل تأنٍّ وحذر خوف ان تُسمع لهُ حركةٌ ترتاع لها تلك الظبية الانسية ونظر الى الداخل من ثقب الباب . . . . . .

وهنا يصعب وصف ما فاجأهُ من الدهشة والانقلاب فانهُ لو انقضت عليهِ صاعقةٌ حينئذٍ لم يكن تأثيرها باعظم مما نالهُ من ذلك المشهد . فانهُ رأى تلك المخلوقة الجميلة والراهبة الورعة بل اخت الملائكة وخادمة الدير منتصبة على قدميها في وسط الغرفة وقد خلعت عنها الردآء الخارجي والقتهُ جانباً فظهر من تحتهِ جسمها مدججاً بالسلاح وممنطقاً بحزامٍ من الجلد والى الجهة اليسرى من خصرها حلقةٌ من حديد تضم عدداً وافراً من المفاتيح المختلفة الحجم والشكل . وقد تبدلت منها تلك النظرات اللطيفة بشررٍ كان يتطاير من مقلتيها كانها بعض الاثمة الاشرار ويزيد في انقلاب سحنتها ما

كانت تمتصهُ بشرتهُ من التبغ في ذلك الحين فيخرج دخانهُ من فيها كغيوم تتكاثف من حولها فيبددها النسيم . ثم اقتربت من المصباح فاخذتهُ بيدها وادنتهُ من النافذة وجعلت تحركهُ باشارةٍ تدل على وجود رفاقٍ لها مترقبين بالخارج فتكلمهم برموزٍ واشاراتٍ متفقٍ عليها قبلاً

اما الرجل فجمد الدم في عروقهِ وجحظت مقلتاهُ فلبث هنيهةً لا يبدي حراكاً واخيراً تنبه من غفلتهِ فعلم ان الحال لا تسمح لهُ بضياع دقيقةٍ واحدة ربما كانت سبباً لفقدان حياتهِ وخراب المنزل . فهرول مسرعاً نحو مخدع مولاتهِ وقرع الباب بالحاح فاستيقظت تلك مذعورةً وقالت من الطارق . فقال خادمكِ بطرس يا سيدتي فعجلي بالنهوض . فقامت وفتحت واذا بالبواب قد ترامى على قدميها هاتفاً بصوتٍ قد ارجفهُ الخوف « لصوص لصوص »

ولم يأتِ على هذه الكلمة حتى انتفضت مولاتهُ كعصفورٍ بللهُ القطر وصاحت به اين اللصوص وكيف عرفت ذلك . فقال الصفح يا مولاتي عن جرأتي فقد نفذ في فؤادي سهم حب تلك الشيطانة التي دخلت المنزل بهيئة راهبة فأتيت لاراها وكان من ذلك اني اطلعت على سرائرها والحمد لله وللحب كم لهُ من حسنات . قالت ويحك لم افهم مغزى كلامك اخبرني حالاً اين اللصوص . فأخذها بيدها واراد المسير فتوقفت جزعاً وصاحت مكررةً اين اللصوص . فقال ياسيدتي لا تضيعي الوقت واعلمي ان التي اضفتها في منزلكِ ليست براهبة كما تدلّ ظواهرها بل هي شريكة لصوص ينتظرونها خارجاً وقد استعانت بذلك الثوب على دخول منزلكِ خدعةً لاختلاس ما فيهِ من المال والمتاع فاقتربي من باب غرفتها يتضح لكِ الامر . فاقتربت

ولما نظرت كاد يغشى عليها من شدة الهلع فبادر الخادم لمساعدتها وارجاعها الى غرفتها وللحال قرعت الجرس فانتبه الخدم واخذوا يفدون الواحد بعد الآخر فتمارضت امامهم وجعلت تصرخ متألمة ثم اشارت اليهم بأن يوقظوا اولادها فلم يكن الا كطرفة عين حتى كان افراد الأُسرة كلهم مجتمعين في غرفتها فبلغتهم الامر سرًّا فأخذوا يتشاورون فيما يفعلون

وعند ذلك اقبلت الراهبة لترى ما الخبر لانها سمعت جلبة القوم وكانت مرتدية ثوبها الخارجي وبيدها سبحة فنظرت اليهم ببشاشتها المعهودة وتلطفت بالسؤال عن سبب انزعاجهم فأخبروها ان والدتهم مريضة وقد تنتابها الآلام من حين الى آخر . فأخذت تهون عليهم الامر وتخفف عنهم بعض الارتباك بحديثها العذب ثم جاست ازاء سرير المتمارضة وكانت لا تزال تستغيث متظاهرةً بشدة الألم فركعت بجانبها وجعلت تصلي صلاةً حارّة

وفي تلك الفترة كان بعض الخدم ممن عرفوا سرّ الحادثة قد توجه بأمر مولاهُ لاستدعاء الطبيب والحقيقة انهُ ذهب توًّا الى مركز رئيس الشحنة (البوليس) واطلعهُ على حقيقة الامر فلم تمضِ على ذلك الا دقائق قليلة حتى كان القصر محاطاً بحلقةٍ من الجنود وأُلقي القبض بغتةً على اللصوص الذين في الخارج وكانوا عديدين وأُنزلت الراهبة مكتوفة اليدين لينالوا جميعهم مرّ العقاب

لغة الجرائد

(تابع لما في الجزء السابق)

وهناك الفاظٌ وصيغٌ غريبة انفرد بها بعض كتّابنا منها عن زيادة تأنقٍ ومغالاةٍ في طلب الإغراب فيخبطون في استعمال الفاظ اللغة الى ما يخرجها عن وضعها ويكسوها ثوباً من القلق والابهام ومنها عن قلةٍ في المادة وجهلٍ بمفرادت اللغة ووجوه استعمالها فيأتي بها الكلام في منتهى الركاكة والسقم . والامثلة من الطرفين كثيرةٌ نجتزئ بايراد بعضها عبرةً للمنتقد وتنبيهاً للمقلد

فمن امثلة الاولى قول القائل « ان تلك السجون كانت منبت الاوبآء ومبترَك الامراض » ولفظ المبترك كما تراهُ غريبٌ في هذا الموضع لا يكاد يُستخرَج لهُ معنًى الا بعد اطالة البحث وتقليب النظر فيما يوافقهُ من التفسير اللغويّ ولعلّ اقرب ما يأوَّل بهِ ان يُجعَل من قولهم ابترك السحاب اذا الحّ بالمطر فكأن المعنى ان الامراض تلحّ فيها على المسجونين . ولا يخفى ما في هذا التفسير من التكلف والبعد فضلاً عن ايراد مثل هذه اللفظة في جريدةٍ يقرأها التاجر والصانع والفلاح فما ضرّهُ لو قال ومستقرّ الامراض او مستوطَن الامراض وكفى نفسهُ وقرّآءهُ هذا العنت الوبيل

ومن ذلك قولهُ « اثبتت حقوقها بما لم يعد معهُ للريب بال » . قال في القاموس البال الحال والخاطر والقلب والحوت العظيم والمرّ الذي يُعتمَل بهِ في ارض الزرع ورخآء العيش وانظر ايها يناسب هذا الموضع

وقولهُ « دخان المعامل وعِثير ايدي الصناع » اي ما يثيرونهُ من الغبار